بمسافة إثنتي عشرة مرحلة عن باريس وسيمكث فيها خمسة وعشرين يوماً. وإن عليّ أن أهيء خلال هذه المدة تصميماً للنافورة الجميلة. وليكن في غاية الأناقة مشحوناً بالزخارف والتهاويل. وشدد عليّ بأن أسخّر له كلّ مواهبي ليكون فريداً في بابه لأن البقعة التي ستقام النافورة عليها هي عنده أحبّ مكان في مملكته حيث يقضي فيها أوقات فراغه مستمتعاً، فوعدته. وعندما شاهد كلّ الأعمال التي أشتغل بها قال لمدام ديتامپ:

- لم يقم رجل في صناعته بإرضائي مثله فهو يستحق اعظم الجزاء. ولذلك علينا ان نفكر في وسائل بقائه هنا. انه مبسوط اليد؛ جليس مؤنس، وعامل مجدّ. فعلينا والحالة هذه أن لانهمل أمره وأن نفكر فيه دوماً بل وأكثو من هذا ياسيدتي، أنظري انه لم يطلب شيئاً لنفسه قط في الزيارات العديدة التي قمت بها لمصنعه، وفي جيئاته اليّ. ان فنّه هو كلّ شيء عنده وقد اوقف عليه روحه وقلبه. علينا ان نفكر في شيء له فوراً خشية أن نفقده.

فأجابته (مدام ديتامپ):

- سأذكّرك بهذا.

وإنصرفوا وواصلت عملي دؤوباً كما شرعت في عمل تصميم للنافورة بحماسة وتفرّغ. بنهاية شهر ونصف عاد الملك الى پاريس وكنت خلال ذلك أشتغل ليل نهارٍ فتوجهت للسلام عليه مصحوباً بالتصميم الذي بدا رائعاً عند تمامه دقيقاً في تفاصيله بحيث يسهل فهمه.

في تلك الأثناء نشبت الحرب اللعينة مرة أخرى بين الملك والإمبراطور[٣٧] ولذلك وجدت جلالته مشغول البال. فما كان منيّ إلاّ أن بحثت الأمر مع كردينال (فِرارا) وأعلمته بأني أحمل تصاميم للملك سبق وكلّفني بها وأشرت الى أن عرضها قد يسرّي عنه ورجوته أن يقول بضع كلمات إن وجد فرصة مناسبة تمكنني من ذلك. ففعل الكردينال ماطلبت منه. وعندما نوه لجلالته بالتصاميم أقبل الملك حالاً لمشاهدتها. كان التصميم يحوي أولاً على مدخل قصر فونتنبلو بتحوير طفيف لتصحيح أبعاده إذ كان واطئاً وعريضاً على الأسلوب الفرنسي القبيح. وكانت فتحة المدخل أيضاً مربعة الشكل وفوقها العقادة بشكلٍ نصف دائري مفلطحة شبيهة بيد السلّة. في وسط هذه العقادة الدائرية رغب الملك أن أعمل تمثالاً يمثل فونتنبلو. فأدخلت تحسينات في أجزاء المدخل وجعلت العقادة بنصف دائرة كاملة أما الركنان فقد جلعت فيهما زخارف بارزة وحلّيتهما من الأعلى والأسفل بما يناسبهما من الأفاريز والكوى وإعتضتُ عن الأسطونين الجانبيين بتمثالي مسخين يرفعان كلّ منهما يداً ليسند الأسطون ويمسك باليد الثانية رمحاً كبيراً ذا شعب وصورتهما بشكل يوحي بالرهبة. والفرق الوحيد بين المسخين هو أني جعلت يد أحدهما تمسك بسوط ذي شعب ثلاث كلّ شعبة تنتهي بكرة. وقد سميتهما بالمسخين تجوازاً لأنهما لايشبهان ذلك الكائن الخرافي إلا في القرنين الصغيرين اللذين

=يبدو ان (المرحلة) هي ميل واحد.

(٣٧) ساد السلم حوالى خمس سنين (١٥٣٧-١٥٤٢) ثم نشبت الحرب مجدداً في أيار ١٥٤٢ وإستمرت حوالى السنتين وإنتهت بمعاهدة كريپي Crêpy في ١٥٤٤.

يخرجان من الرأس الشبيه برأس الجدي. أما سائر الجسم فهو بشريّ. وجعلت في وسط العقادة نصف الدائرية إمرأة مضطجعة[٣٨] على جنبها بهيئة لطيفة جداً. يدها اليسرى مستقرة على عنق غزال وهو واحد من الشعارات الملكية وجعلت في جانب منه ضباءً صغاراً بنصف بروز وخنازير بريّة وغيرها من الوحوش البريّة بنصف بروز واطيء. وفي الجانب الآخر كلاب صيد وكلاب سلاقية من مختلف الأجناس، وهو مايكثر عادة في تلك الغابة الجميلة حيث نبع الماء.

وأحطت كلّ هذا بإطار مستطيل في كلّ زواية من زاويتيه العُليَين جعلت صورة للإلهة (ڤكتوري) بالحفر الواطيء ممسكة مشاعل كما ترى في النقوش التي خلّفها الأقدمون. وفوقها نقشت سحليّة وهو إقتراح الملك. ومع مجموعة كبيرة من الزخارف والزركشات الرائعة على النمط الآيوني[٣٩] مما ينسجم مع الباقي.

وأشرق وجه الملك عندما وقعت أنظاره على التصميم، وإنصرف فكره الى المناقشات المتعبة أكثر من ساعتين. ولما وجدته في حالة نفسية طيبة كشفت عن التصميم الثاني الذي لم يكن يتوقعه، فقد حسب أن التصميم الأول هو كلّ ما إتسع له وقتي وكان إرتفاعه يزيد عن ثلاثة أقدام ويمثل فسقية تامة التربيع تحيط بجوانبها الأربعة مدرجات جميلة متقاطعة بشكل غير مألوف لا عندنا ولا في هذه البلاد. وجعلت بمركز الفسقية قاعدة مرتفعة بعض الشيء عن الحوض وأقمت وسط هذه القاعدة تمثالاً عارياً متناسق الأعضاء جميل الشكل ترتفع ذراعه اليمنى الى أقصى ما تمتد ممسكة برمح مكسور. وتستقر يده اليسرى على مقبض سيف عريض إعتنيت كثيراً بتصويره. وهو واضع ثقله على قدمه اليسرى. أما قدمه اليمنى فقد جعلتها تستقرّ على خوذة حربية كثيرة الزخارف. وفي جوانب الفسقية أقمت أربعة تماثيل تجلس فوق قواعد وكل واحد منها يرفع شعاره الخياليّ الطابع.

أنشأ الملك يستجوبني عمّا يكمن وراء هذا التصميم الجميل من فكرة، قائلاً إنه لايحتاج الى كلمة منيّ ليفهم كلّ ماقصدته في تصميم تفاصيل مدخل الباب. لكنه مع الجمال الظاهر في تصميم الفسقية- لايستوعب قط ما أرمي إليه من فكرة فيها. وأردف يقول: انه يعلم حق العلم بأني لست من صنف أولئك الحمقى الذين يبدو عملهم أنيقاً في الظاهر ولكنه يخلو من أي معنى. وهنا تهيأت لشرح فكرتي لأني كنت أريد أن أسرّه بأقوالي قدر ماجعلته مسروراً بما أنجزت. قلت:

- بودّي أن يعلم جلالتك الأقدس إن عملي هذا مبني على حساب دقيق الى حدّ العقدة. بحيث إنه سيحتفظ بكامل روعته وجماله عند إكماله. فهذا التمثال في الوسط سيكون إرتفاعه أربعة وخمسين قدماً (أبدى الملك هنا حركة تدل على الدهشة العظيمة) وهو يمثل (مارس). أما التماثيل

(٣٨) هذه الحورية لم تركّب في باب القصر. وبعد وفاة فرنسوا الأول، منحها إبنه هنري الثاني لعشيقته (ديانا دي بواتييه) فزيّنت بها باب قصرها في آنيت. وهي الآن من معروضات متحف اللوڤر.

(٣٩) آيونيا هو الإسم الذي يعرف به ساحل بحر أيجه التركي حالياً. حيث إزدهرت في مدنه حضارة يونانية مهمة جداً من الألف الأخيرة قبل الميلاد ومنها إستمدت اليونان حضارتها في القرون التي تلت. وچلليني يشير هنا الى أسلوب البناء اليوناني المتميز الذي قلده فنانو الرنيسانس مع بعض تحوير.

الأربعة الأخرى فتمثل العلوم والفنون التي يشجعها جلالتك ويشملها برعايته. فالذي في الجهة اليمني يمثل دنيا المعرفة وأنت ترى كيف كان شعارها؛ مظهرةً الفلسفة ومختلف فروعها. والآخر يمثّل كلّ فنون التصميم أعني النحت والتصوير والهندسة المعمارية. والثالث للموسيقى التي ترافق كلّ فروع المعرفة هذه. يليه هذا التمثال اللطيف الجميل الذي يمثل التسامح ولولاه لإختفت كل المَلَكات النادرة التي أنعم بها الله علينا. والتمثال العظيم في المركز يمثل شخص جلالتك (مارس) إله الحرب، الفريد في الشجاعة: أنت الذي تستخدم شجاعتك بعدلٍ وإخلاص في الدفاع عن شرفك ومجدك.

ولم يصبر على إنهاء كلامي فقاطعني قائلاً بصوت جهير:

– لعمري إني وجدت رجلاً يناسبني.

ثم إنه نادى أمناء خزانته وأمرهم بأن يزودوني بكلّ ما أحتاج مهما كلّف ذلك من مال. ثم ربت على كتفي وقال لي:

– ياصديقي (Mon Ami!) لا أدري أيهما أسعد حظاً؟ الأمير الذي وجد رجلاً يتفق وهواه؟ أم الفنان الذي وجد أميراً مستعداً لتلبية كل طلب له للتعبير عن أفكاره العظيمة الخلاّقة؟

فأجبته قائلاً: إن كنتُ المقصود بكلام جلالته، فأنا الأسعد حظاً. فقال مبتسماً:

– فلنعتبر أنفسنا ذوي حظوظ متساوية.

ثم إستأذنت والدنيا لاتسعني فرحاً منصرفاً الى أشغالي.

كما شاء لي حظيّ العاثر، لم ينصحني أحد بإعادة تمثيل هذه المقابلة مع (مدام ديتامپ). فبعد أن سمعت من فم الملك نفسه كلّ ماوقع تجمع لها حقد مسموم في صدرها عليّ بحيث إنفجرت قائلة:

– لو عرض عليّ بنڤنوتو أعماله الفنيّة الجميلة لزودني بمبرر وسبب لتذكره في الوقت المناسب.

وحاول الملك الإعتذار لي من غير طائل. وقد سمعت بالقضية بعد أسبوعين لأنهما كانا قد قاما برحلة ملكية الى نورماندي زارا خلالها مدينتي (روان Rouan) و(دييپ Diepe) ثم عادا الى (سانت جرمان آنلايي). فحملت الإناء الصغير الجميل الذي كنت قد صنعته بناء على طلب مدام ديتامپ وقصدتها مؤملاً بإهدائه ان أستعيد حظوتي لديها. بلغت منزلها وعرضت على إحدى وصيفاتها ماجلبته لسيدتها فرحبت بي بلطف لامزيد عليه وقالت إنها ستكلم سيدتها التي لم ترتد ثيابها بعد. وإني سأدخل عليها حالما تخطرها بوجودي.

نقلت الوصيفة رسالتي الى السيدة فأجابت بإستخفاف:

– قولوا له أن ينتظر.

ولما بلغت بذلك قلت سمعاً وطاعة وتجمّلت بالصبر وهو عندي أصعب الأمور. بقيت صابراً كاظماً حتي فات وقت الغداء. وتأخر بي الوقت وعمل الجوع على إثارة غيظي الشديد ولم يعد عندي طاقة للإحتمال فإنصرفت وأنا أقول في نفسي الى سقر بها وبئس المصير. قصدت كردينال اللورين وقدمت له الإناء هديةً ولم أسأله عوضاً سوى أن يذكرني بخير أمام الملك. فأجاب لاحاجة تدعو الى هذه

الوساطة ولكنه لن يتردد في إهتبال أي فرصة لتزكيتي وسيفعل ذلك بكلّ طيبة خاطر. ثم دعا وكيله وهمس في أذنه كلاماً. وإنتظر الوكيل حتى خرجت من مجلس الكردينال فقال لي:

– هيا معي يا بنڤنوتو وسأسقيك خمراً معتقة.

فأجبت وأنا غير مدرك قصده:

– رحماك ياسيدي الخازن. أسعفني بكأس خمر مع كسرة خبز فأنا في أمسّ الحاجة اليهما. فأنا على الطوى منذ صباح اليوم الباكر حتى الان، أنتظر على عتبة دار مدام ديتامپ لأقدم لها هذا الإناء الفضي الصغير الجميل هديةً. أخطرتها بغرضي إلا أنها أشارت بالإنتظار قاصدة تحقيري. والآن أرى الجوع يقرص أحشائي فأكاد أسقط إعياءً. ولقد شاءت إرادة الله على كلّ– أن أقدم ثمرة عملي الى من هو أحق به منها. وكل ما أطلبه الآن هو ما أنقع به ريقي لأني صفراوي المزاج والصوم يضرّ بصحتي. وأنا أخشى أن أسقط من شدة الضعف. وفيما أنا أنتزع الكلمات من فمي بجهد خارق ظهر بالباب طبق عليه خمر ممتازة وغير ذلك من الأطايب. فعادت اليّ روحي وإنتعشت بعد أن تناولت هذه الوجبة الخفيفة وزايلني الغضب. بعدها قدّم لي الخازن الكريم مائة كراون ذهبي فرفضت قبولها بشدة. فأبلغ الكردينال بذلك فأنّبه وأمره أن يحملني على قبولها حملاً وأن لا يريه وجهه قبل أن يفعل ذلك. فعاد الخازن وهو منفعل وقال إنه لم يُؤنَّب من قبل بمثل هذا الشدّة. والحّ عليّ بقبول المال ولكني بقيت على إصراري. عندئذ حمي غضبه وقال إنه سيرغمني على ذلك بالقوة. ولم يعد لي حيلة إلاّ القبول. وطلبت منه أن ادخل على الكردينال لأشكره. فبعث نيافته لي برسالة شفوية يقول فيها انه لن يدع فرصة تفوت إلا إنتهزها لفائدتي.

عدت مساء اليوم نفسه الى پاريس وعلم الملك بالحكاية من أولها الى آخرها. وضحك المطلعون على المسألة سخريةً بمدام ديتامپ مما ضاعف من حقدها عليّ ورغبتها في إلحاق الضرر بي وكاد سعيها يوردني حتفي وسأورد الحديث عن ذلك في موضعه المناسب.

كان عليّ قبل تسجيل هذا أن أنوّه بفوزي بصداقة أسمى وأرق وأعظم الناس ذكاءً ومواهب لقيته في حياتي، ألا وهو الأستاذ (گويدو گويدي Guido Guidi)[٤٠] الطبيب النطّاسي والحكيم العالم والمواطن النبيل الفلورنسي. أنساني الكلام عنه سوء حظي القاسي بمتاعبه المستمرة التي يرميني بها. إلا أن إغفاله ليس مهماً ما دام هو قريب من القلب على طول. على اني أرى قصة حياتي ناقصة من دون التنويه به. وها أنا الآن أبرز شخصه من وسط الأعاصير والزوابع التي عانيتها، ففي أثنائها كان مصدر عون وراحةٍ لي. وإني الآن أقرّ بما أظهره لي من طيبة وكرم.

بعد أن قدم السيد (گويدو) الى پاريس وفي مبدء تعرفي به دعوته للسكنى في قلعتي ووضعت

(٤٠) هو حفيد الرسام دونييكو دل جيرلاندايو الفلورنسي. قضى في فرنسا ست سنوات (١٥٤٢–١٥٤٨) طبيباً للبلاط الملكي. ثم عيّن أستاذاً للطب في جامعة پيزا. كتابه في الطب أو بالأحرى في الجراحة الذي تنوه به المذكرات. هو ترجمة لأبقراط وجالينوس. طبع في پاريس (١٥٤٤) وطابع هذا الكتاب هو (پيير گوتييه) مستأجر چلليني المطرود كما سيأتي ذكره. [حاشية بيانكي].

تحت تصرفه جناحاً كاملاً منها، فإستقرّ فيه وإستمتعنا معاً بصحبةٍ إمتدت عدّة سنوات. وقدم باريس كذلك (أسقف باڤيا) المونسنيور (داروسّي) أخو الكونت (سانت سكوندو). فجئت بهذا الحبر الجليل الى قلعتي وأفردت له جناحاً فإستقرّ فيه مع خدمه وكان جدّ مرتاح من إقامته التي إمتدت بضعة أشهر. كذلك إستضفت السيد (لويجي آلاماني) وأولاده في مناسبة أخرى فأقاموا عندي أشهراً قليلة. إن الله كان براً حتى بي فجعل مني أداة لخدمة هؤلاء الرجال العظماء والموهوبين.

لقد آنست كثيراً بصداقة الأستاذ (گويدو) طوال المدة التي قضيتها في پاريس. وكثيراً ما هنأنا أنفسنا بالحظوة والتقدير اللذين نلناهما من ملك عظيم كلّ في مجال صناعته. ولا يسعني إلا الإقرار بأن الفضل في كلّ مانلته من شهرة وما أنجزت من جلائل الآثار الفنية إنما يعود الى هذا الملك المحبوب الرائع. ولكن ينبغي لي أن أواصل ما إنقطع من الحديث عنه وعن العمل العظيم الذي قمت به له.

كان في قلعتي ساحة للعب التنس أحصل على أيراد جيد جداً منها بأيجارها للاعبين. والملعب يحوي عدداً من الغرف الصغيرة يسكنها أناس من مختلف الهويات ومن بينهم طبّاع ماهر جداً كان كلّ مطبعته تقريباً داخل قلعتي وهو الذي طبع للسيد (گويدو) كتابه الأول النفيس في الطب. وبناءً على حاجتي الى الغرف التي يشغلها فقد أخرجته ولكن بعد مشقة عظيمة. وكان ثمّ أيضاً منتج لملح البارود رفض رفضاً قاطعاً أن يتحرك من مكانه عندما أردت إخراجه من غرفته لأُسكن فيها بعضاً من عمالي الألمان الحاذقين. رجوته إخلاء الغرف عدّة مرات بكلّ لطف وأدب قائلاً إني أَريدها لإسكان عمالي الذين هم في خدمة الملك.

ان صلف هذا الحيوان ووقاحته كانتا تزيدان بزيادة تأدبي ولطفي. أخيراً أنذرته وحددت له مهلة ثلاثة أيام للجلاء. فإنفجر هذا ضاحكاً وقال إنه سيبدأ في الإخلاء بعد نهاية ثلاثة أعوام. ولم أكن أعلم أنه من أحد خدم (مدام ديتامپ) المقربين، ولو لم يجعلني خلافها معي حذراً متوجساً بعد تلك الحادثة لطردته في الحال. إلا أني قررت أن أصبر عليه هذه الأيام الثلاثة. وبعد أن إنتهى هذا الأجل جمعت بعض عمالي الفرنسيين والألمان والأيطاليين. وكلّ سلاحه في يده- مع عدد من العمّال غير الماهرين وبدون أن أبادله كلمة واحدة حطمنا محلّه وقذفنا بكلّ مقتناه وأثاثه خارج القلعة. وقد قمت بهذا العمل العنيف بعض الشيء لأنه قال لي: إنه لايعرف أيطالياً واحداً يجرُء على قلع مسمار واحد من محلّه. وبعد أن إنتهى كلّ شيء أقبل عليّ، فقلت:

- إني أضعف أيطالي في كلّ أيطاليا. ولم أفعل بك إلا أقلّ مايمكنني عمله ولو نطقت الآن بكلمة واحدة لنالك أكثر.

ثم أضفت الى ذلك بعض الشتائم والإهانات. فصعق وركبه الخوف وأسرع يجمع أشياءه بسرعة وإنطلق حالاً الى (مدام ديتامپ) ووصف لها مافعلت بصورة نقشها من جهنم نفسها. فقامت عدوّتي الكبرى هذه بنقل المسألة الى الملك مستعينة بذلاقة لسانها ونفوذها وصورت عملي بأسوأ مايمكن.

ابلغت فيما بعد أن الملك حمي غضبه حتى كاد يتخذ قراراً قاسياً بحقيّ مرتين لولا تدخل إبنه ولي العهد هنري (ملك فرنسا الآن) الذي واجه من هذه السيدة الغطريسة عدة تحديات فدافع عنيّ هو

وأخت الملك ملكة الناقار دفاعاً حاراً، فإنفثأ غضبه وإنقلب الأمر كلّه الى مزاح. وهكذا بعون صادقٍ من الله نجوت من هذه العاصفة الكاسحة.

كان ثمّ رجل آخر إضطررت أن ألجأ معه الى عين العمل. إلا أني لم أحطم أثاثه بل قذفت بها الى الخارج وعلى إثر هذا بلغت الجراءة بمدام ديتامپ حداً أن قالت للملك:

- يغلب على ظني أن هذا الشيطان سيخرّب پاريس كلّها يوماً!

فأجاب الملك غاضباً: إن الرجل يستخدم حقه الكامل في الدفاع عن نفسه ضد الصعاليك الأوغاد الذين يعرقلون خدمته لي. وأخذ حقد هذه المرأة الشريرة ينمو ساعة بعد ساعة. ثم إستقدمت رساماً كان مقيماً في (فونتنبلو) حيث يقيم الملك عادة، وهو مواطن من أهل بولونيا يعرف بلقب (إل بولونيا Il Bologna) وإسمه الحقيقي (فرانشسكو پريماتيچيو F. Primaticcio)[٤١] ولقّنته بأن يطلب من الملك تكليفه بنفس العمل الذي عهد به اليّ جلالته بخصوص النافورة. ووعدته بإستخدام كلّ نفوذها لمساعدته على نيل هذا العمل. وهكذا إتفقا معاً على مايترتب عمله في هذا الشأن. ولم تسع (بولونيا) الدنيا فرحاً، متصوراً أن العمل أصبح له. ومع إنه كان ماهراً في تخطيط التصاميم وقد جمع حوله عدداً من العاملين الذين كانوا عند رسّامنا (روسو) الفلورنسي الفنان العظيم، إلاّ أنه لم يكن صالحاً لمثل هذا العمل. والواقع أن كل حسن جيد في أعماله يعود الى (روسو) الذي كان يستنسخ منه. و(روسو) الآن في عداد الأموات.

نجحت الدسيسة الماكرة بفضل المنطق الخبيث الذي إستخدمته مدام ديتامپ وبذلها أقصى ما في طاقتها من المساعي. وكانا يلاحقان الملك بالموضوع ليلاً ونهاراً مرّة (بولونيا) ومرّة (المدام) والسبب الأساسي لرضوخه قولهما:

- ياصاحب الجلالة كيف يمكن أن يقوم بنڤنوتو بعمل إثني عشر تمثالاً من الفضة وهو ماتطلب منه في حين انه لم ينجز حتى الآن واحداً منها؟ فإن أنت إستخدمته لهذا المشروع الضخم فلاشك أنه يترتب عليك أن تستغني عن الأشياء التي تصبو إليها نظراً لأن مائة من الفنانين الكبار قد يعجزون عن إكمال المشاريع العظمى التي إضطلع بها هذا الرجل الداهية. واضح جداً كم هو مشوق للعمل حريص عليه والنتيجة هي إن جلالتك سيفقد الرجل ويفقد إنتاجه معاً.

عُرضت هذه الحجج وأمثالها عندما وجدا الملك في حالة إستعداد فكري لقبولها فوافق على ماطلبا؛ إلا أنه لم يشاهد أي تصميم من عمل (بولونيا).

في الوقت الذي جرى هذا، رفع المستأجر المطرود عليّ دعوى قضائية زاعماً أني عندما طردته إغتصبت مقداراً كبيراً من بضاعته وأشيائه. وسببت لي هذه الدعوى مضايقات لا نهاية لها. وإستنزفت منيّ وقتاً مديداً حتى ركبني اليأس من الحال وخالجتني فكرة الرحيل عن فرنسا بلا عودة. في هذه البلاد يجني الناس أرباحاً كبيرة للغاية من إقامة الدعاوى ضد أجنبيّ أو أي شخص يتوسمون فيه الجهل بالأصول القانونية أو قلّة الصبر. فما ان تبدو الدعوى رابحة حتى يحاول صاحبها بيعها

(٤١) إستخدمه فرانسوا الأول. ثم هنري الثاني ثم فرنسوا الثاني. وقد أورد ڤاساري (ج٧) سيرة حياته.

الى آخر. وقد أثر عن بعضهم أنهم كانوا يمهرون بناتهم ببائنات تتألف من دعاو قضائية لمن احترف التعامل بها وجعلها مورد رزق له ومدار عيش. وثم عادة شائعة قبيحة عند كلّ أهل نورماندي أو معظمهم، وهي تلفيق الشهادات الكاذبة التي مهروا فيها. فقد يتفق أن يستعين مشتري الدعوى بأربعة أو ستة من شهود الزور حسبما تدعو اليه الحاجة. ومن يجهل هذه العادة ولايجد من ينصحه بتأمين عدد مماثل من شهود الزور لإسقاط شهادات الخصم فسيجد قرار الحكم ضدّه.

كلّ هذا وقع لي وهو من أرذل وأحطّ أساليب الخداع والظلم. بلغت مبنى محكمة پاريس الشامخ الباذخ لأدافع عن حقيّ. فوجدت القاضي وهو بمنصب نائب الملك في الدعاوى المدنية، يتصدر منصةً عظيمة مرتفعة. وكان رجلاً بديناً ضخماً فارع الطول منفر الوجه الى درجة كبيرة. وقد جلس الى يمينه ويساره عدد من المحامين ورجال القانون. فيتوافد اليه المراجعون ليعرض كلّ منهم بدوره قضيته. وسمعت المتداعين الى جانب منه يتكلمون جميعاً في وقت واحد. فسُمّرت في مكاني مشدوهاً أحملق في هذا الرجل العجيب الذي شبهت وجهه بوجه أفلاطون معجباً بسرعة بديهته وشدّة إنتباهه. إذ كان يرهف اذنه الى هذا تارةً ويصغي الى ذاك تارةً أخرى ويجيب عن كلّ سؤال بإجابات بارعة مُسكتة. كنت ومازلت أسرّ كثيراً بمشاهدة أي مظهر من مظاهر الذكاء والعبقرية يعنّ لي. وقد وجدت في هذا القاضي بغيتي من الإعجاز والفتنة، فقررت ألاّ أحرم نفسي من هذا المنظر النادر وأن أبقى متابعاً له الى الأخير. كانت القاعة غاصّة بالناس. وقد اتخذت الإجراءات للحيلولة دون دخول أيّ شخص لاشأن لديه فيها ولا دعوى. فأغلق الباب وقف الحاجب عنده يصدّ من يريد الدخول. فكان يشتبك بين حين وآخر مع من يريد الدخول في جدال يزعج القاضي ويقطع عليه سلسلة تفكيره بالضجة الناجمة فتثور ثائرته وينهال على الحاجب تأنيباً وتقريعاً. ووقع هذا عدة مرات فإسترعى إنتباهي وأرهفت أذني لإلتقط الكلمات التي كانت تتناثر من بين شفتي القاضي. واتفق أن سيدين همّا بالدخول لمتابعة المرافعة فقاومهما الحاجب بشدّة فصرخ القاضي بصوت كالرعد"سكوتاً، سكوتاً! ياللشيطان! أخرج! أسكت!" وعبارته تبدو بالفرنسية كالآتي"Phe Phe, Satan, Phe Phe alé Phe". وكنت ملماً باللغة، فلما سمعت هذه الكلمات خطر ببالي ما قاله (دانتي)[٤٢] عندما إجتاز أبواب الجحيم برفقة أستاذه (ڤرجيل)[٤٣]. فقلت لنفسي: إن (دانتي) والرسام (گيوتو)[٤٤] وجدا معاً في فرنسا وفي پاريس على الأخص التي تشبه الجحيم فعلاً وفق ماذكرت. ولما كان دانتي يتقن اللغة الفرنسية فقد ضمّن عبارة القاضي قصائده. ومن الغريب ألاّ يفهم البيت على هذا الأساس. لذلك أريد أن أوضح هنا بأن المعلقين والشرّاح قد فسّروا هذه الأبيات بمعانٍ لم تخطر ببال الشاعر مطلقاً[٤٥].

(٤٢) دانتي أليگري (١٢٦٥-١٣٢١) بملحمته (الكوميدي الإلهية) يعتبر أبا الشعر الأيطالي. وهي أشهر من أن يُعرّف القاريء بها.

(٤٣) پوبليوس ڤرجيليوس مارو (٧٠ ق.م-١٩ ب.م) شاعر روماني ومسرحي صاحب ملحمة الأينياد.

(٤٤) گيوتو دي بوندوني Gioto de Bondone(١٢٦٦-١٣٣٧) رسام وفسيفسائي ومعمار أيطالي معروف. آثاره ترى في پادوا وفلورنسا.

(٤٥) والمقصود هو البيت الآتي: Pohe Satan, Pohe Satan alleppé Convincio Pluto con la voce chioccia (الجحيم ٧: ١) قال=

ولأعد الى شؤوني: عندما صار واضحاً عندي نتيجة الحكم الذي سيصدر عليّ من المحكمة ورجال القانون هذا حالهم ولم أجد سبيلاً للخروج من الورطة. توكّلت على خنجر كبير ماضٍ وأسلمته أمر الدفاع عن حقوقي (كنت أجد لذة عظيمة في إقتناء أفضل السلاح). وكان أول رجل ذاق حدّه هو اليد المحركة لتلك الدعوى الزائفة التي أقيمت ضدي. ففي ليلة من الليالي أصبته بعدة جراح في ذراعيه وساقيه (محتاطاً من عدم إصابته بمقتل) بحيث حرمته من إستخدام ساقيه الإثنتين. ثم إنثنيت الى صاحب الدعوى الأصلي فأحدثت فيه شقّاً بليغاً بحيث جعله يترك الدعوى.

حمدت الله وشكرته على هذا وعلى كلّ شيء راجياً أن يكون فيه نهاية لمتاعبي لفترة من الزمن على الأقل. وشدّدت على فتياني الذين يشتغلون عندي ولاسيما الإيطاليين بأن ينكبّوا على أعمالهم وإستحلفتهم بالله أن يكونوا صادقين في معاونتي على إنجاز الأعمال المنوطة بي بأقرب وقت ممكن. لأني عزمت على العودة الى أيطاليا بعد أن ضقت ذرعاً بنذالة هؤلاء الإفرنج ومكرهم السيء مقدّراً أيضاً احتمال ثورة غضب مفاجئة من الملك قد تفسد عليّ حياتي، بسبب الأعمال التي قمت بها دفاعاً عن نفسي.

من الأيطاليين الذين ذكرتهم كان (اسكانيو) أحبّهم الى قلبي، وهو من بلدة تدعى (تالياكوزا) التابعة لمملكة ناپُلي. والآخر (پاگولو) وهو من أهل روما ذو أصل وضيع لايعرف له أباً. كانا يسكنان عندي في روما وقد جاءا معي وثمّ أيطالي ثالث اسمه (پاگولو) أيضاً وهو إبن لنبيل من روما رقيق الحال من أسرة (ماكاروني). ولم يكن هذا الفتى حسن الإلمام بالفنّ، إلاّ أنه كان مقاتلاً شجاعاً. وكان ثمّ رابع من (فرارا) يدعى (بارتولومو كيوچيا B. Chiocia) وآخر من فلورنسا يدعى (پاگولو ميچيري P. Micceri) له أخ يلقب بـ(إلّ كاتّا Il Catta) ماهرٌ في المحاسبة، لكنه أفلس عندما كان يدير أملاك (توماسّو گوادیني Tomasso Guadagni) التاجر الغني جداً. وتولى (كاتا) هذا تنظيم دفتر حساباتي المتعلقة بأموال الملك المسيحيّ الأعظم وغيره من مختلف الناس. وأشرف عليها فيما بعد أخوه پاگولو ميچيري الذي تعلّم منه وكنت أدفع له أجراً سخياً. وبدا لي شخصاً مستقيماً أهلاً للثقة. ولم تفتني ملاحظة شدّة تدينه إذ كنت أشاهده دوماً وهو يتمتم بصلاة ولاتفارق مسبحة الصلاة يده فأثّر بي ورعه وتقواه الظاهرين وإعتمدت عليه كلّ الإعتماد. إنتحيت به جانباً وقلت له:

– پاگولو ! أي أخي العزيز. انظر الى عيشتك المرفهّة عندي وأنت لاشك مدرك بأنك رقيق الحال لاتملك ماتبدء به عملاً، فضلاً عن هذا أنت فلورنسيّ. ومما يزيدني إعتماداً عليك هو كثرة صلاتك

=(پلوتوس) عندما وقعت انظاره على كلّ من (ڤرجيل) و(دانتي) وهما يلجان الدائرة الرابعة. إن شرح چلليني هنا، لايقلّ غرابة عن شرح غيره من مفسري ملحمة (دانتي) لهذا البيت ومن المحتمل ان (دانتي) قد زار پاريس. لكن يشك كثيراً في ان يكون الرسام (گيوتو) قد زارها. وليس هناك اي دليل على أنهما كانا معاً. وعلى أية حال فإ ماسمعه چلليني في المحكمة هو "Paix Paix Satan. Paix Paix Satan Allez Paix" وهو قريب الجِرس من بيت (دانتي) وهو مصدر وهم چلليني.

وعبادتك الأمر الذي يبعث في نفسي الراحة والسرور. ولذلك أرجو أن تكون في عوني لأني لا أطمئن كثيراً الى أى واحد من الآخرين. أرجو منك أن تهتمّ خصوصاً بأمرين كلاهما يورثاني غماً وقلقاً كثيراً: أولهما أن تحرس مقتناي ومالي بعين يقظة وتحول دون سرقته، وأن لا تمتدّ يدك اليه. والآخر هو قضية تلك الفتاة اليافعة (كاترينا) التي آويها أساساً للإفادة منها في عملي الفنيّ والتي لايسعني الإستغناء عنها. والى جانب هذا ولأني رجل فإني أستخدمها للمتعة الجنسية، وأنا لاأريد تحمّل نفقات أطفال غيري ولن أصبر حتماً على أية إهانة تلحق بي من هذه الجهة والواقع هو أني سأعلم حتماً بذلك إن دفع الطيش بأحد ممن هم في داري الى إرتكاب فعلة كهذه. وبإمكاني التأكيد بأني سأقتلهما معاً. لذلك أرجو منك أيها الأخ العزيز أن تكون لي عوناً. فإن لاحظت أي شيء فانبئني حالاً. لو حدث شيء من هذا القبيل فسأضع حبل المشنقة في عنقها وعنق أمها مع مرتكب العمل. وعليك أنت قبل كلّ أحد أن تلتزم جانب الحذر.

فرسم النذل شارة الصليب مبتدئاً برأسه ونازلاً حتى قدميه وقال:

- تبارك إسم يسوع. معاذ الله أن أفكر بمثل هذا الأمر. أولاً لأني بعيد بطبعي عن هذه الغوايات والرذائل. وثانياً لأني أقدّر تماماً الدّين الذي لك عليّ.

أثّرت بي بساطة لهجته ومظهر الإخلاص والتفاني فوثقت تماماً بكل ماقاله.

بعد هذا بيومين حلّ العيد ودعاني (ماتيو دل نازارو Mathio del Nazaro) وهو إيطالي كذلك يستخدمه الملك في عين عملي بجدارة- الى مجلس لهو وشرب مع فتياني في الهواء الطلق. فكّرت بأنني افلحت الى الآن في إسكات الضجة المتأتية من تلك الدعوى القضائية المزعجة ولذلك تهيأت ودعوت (پاگولو) لمرافقتي وإصابة شيء من المتعة. فأجاب الفتى قائلاً:

- من أكبر الخطأ ان يُترك المنزل دون رقابة على هذا الشكل، أما فكرت بكميات الذهب والحلي والجواهر الموجودة عندك؟ نحن كما لانخفاك نعيش في مدينة تعجّ باللصوص وعلينا ان نكون يقظين دوماً منتبهين ليلاً ونهاراً. وسأقوم بحراسة المنزل وأتلو صلاتي خلال ذلك. وبإمكانك ان تطمئن تماماً. فاذهب رفّه عن نفسك واقضِ وقتاً ممتعاً. وسيتاح لي ذلك في مناسبة اخرى عندما نجد مَنْ يتولى الحراسة عنيّ.

وزايلني القلق وإطمأنت نفسي فإنطلقت الى البساتين ومعي (اسكانيو وپاگولو وكيوچيا) وأمضينا هناك الجزء الأكبر من النهار في لهو وأنس. ولما أخذ النهار يدنو من المساء ركبتني الهواجس وبدأت أفكر بكثير من الشك في كلمات ذلك الساقط وكيف وضعها لي في قالب من البساطة والإقناع. ركبت حصاني وعدت الى القلعة مع إثنين من خدمي وهناك كدت أفاجيء (پاگولو) والعاهر (كاترينا) بالجرم المشهود. إذ ما إجتزت عتبة الدار حتى سمعت أمها العجوز الشمطاء تصيح بالفرنسية:

- پاگولو، كاترينا! السيد هنا.

عندما رأيتهما يدنوان مضطربين مرتعبين، لايدريان وسط فزعهما ماذا يقولان والى أين يتوجهان.

إتضح لي تماماً ماكانا يفعلان. فطاش عقلي وعلاني الغضب فجردت سيفي وأنا مصمم على قتلهما معاً. فأطلق (پاگولو) ساقيه للريح وخرّت الفتاة راكعة وهي تستغيث بالسماء طالبة الرحمة. وكان أول ما طرأ لي هو أن أحمل على الرجل ولكني لم أمسك به حالاً. وكان هدفي وأنا في سبيل هذا أن أختار خير موقف وهو أن أقذف بكليهما خارج المنزل. إذ لم يكن بوسعي إضافة عمل آخر الى أعمال عنفي السابقة قد يتعذر عليّ الخروج منه حيّاً. ولذلك قلت لـ(پاگولو):

- أيها النذل الساقط! لو أني رأيتك بأمّ عيني تعمل ما إضطررت الى الإعتقاد بأنك قمت به لجعلت هذا السيف يخرق أحشاءك عشر مرات. والآن أغرب عن وجهي وإن صليت مرة ثانية الصلاة الربّية فلتكن موجهة للقديس گويّانو![٤٦]

ثم قذفت بالأم والبنت الى الشارع مستخدماً قبضتيّ ورجليّ، فإختطتا للإنتقام مني وراجعتا محامياً نورمانياً فأشار عليهما بأن تدّعي البنت بأني واقعتها من الطريق غير الطبيعي أى مثل اللواطة. وقال:

- عندما يبلّغ الأيطالي بشكواكما فسيخفّ الى إعطائكما بضع مئات من الدوقيات ضماناً لسكوتكما ولمعرفة العقوبة الرهيبة التي تفرض على مرتكب هذا الفعل في فرنسا.

وهكذا إتفقا وسجّلا شكواهما ضدي وإستُدعيت الى المحكمة.

بقدر ما كنت أتلهف الى صفاء الفكر وأحاول إجتناب المتاعب. كانت المزعجات تلاحقني وتعلق بأذيالي فتهاجمني كل يوم بشكل جديد وأسلوب مختلف. أطلت التفكير في أيّ من السبيلين أختار: إمّا أن أترك فرنسا الى سقرٍ. وإما أن أخوض هذه المعركة بعزم وصدقٍ معتمداً على مايدّخره الله لي. فقلبت وجوه الرأي في المسألة طويلاً. أخيراً صحّ عزمي على الرحيل. وأن لا أستفزّ سوء حظي كثيراً لئلا ينتهي أمري وتذهب ريحي. وإتخذت كل ما أمكنني من الإستعداد وبدأت أتخلص بسرعة من الممتلكات التي يتعذر حملها وجمعت المقتنيات الخفيفة والصغيرة لنقلها معي ومع خدمي. إلاّ أن سفري صعب عليّ، وأورثني حزناً كبيراً. وجلست في مرسمي الصغير وحدي بعد أن قلت لتلميذيّ اللذين نصحاني بالرحيل- بأني أفضل أن أعيد النظر في المسألة على إنفراد وإن كنت أجد في رأيهما قدراً كبيراً من الإصابة. لو أمكنني النجاة من السجن وتركت العاصفة تمرّ بمرور الزمن فسأكون في موقف أحسن بكثير لأيضاح عذري للملك وإعلامه بالكتابة اليه كيف أن هذه النكاية الخبيثة كان مبعثها الحقد. وكما قلت آنفاً قررت الرحيل . وحزمت رأيي عليه. ولم أشعر وأنا أهمّ بذلك- إلاّ وبيد خفية تمسك كتفي وتديرني الى الخلف وسمعت صوتاً يقول لي مشجعاً: "بنڤنوتو! تصرف بالشكل الذي إعتدته ولاتخشي شيئاً". فعدلت عن رأيي حالاً وقلت لفتياني الأيطاليين:

(٤٦) القصة المشار إليها هي الحكاية الثانية لليوم الثاني من مجموعة أقاصيص كتاب (الديكامرون) للكاتب الإيطالي الشهير بوكاتشيو (١٣١٣-١٣٧٥). وملخص القصة أن بطلها التاجر رينالدو كان معتاداً تلاوة الصلاة الربية والصلاة المريمية لوالدي القديس گويانو يومياً بعد نهوضه من النوم. وقد عزا إستعادته أمواله المنهوبة من قبل اللصوص الثلاثة وقضاءه ليلة غرام مع أرملة جميلة الى هذه الصلاة. وتشبيه چلليني هنا واضح.

- تسلّحوا بخير سلاح تجدون وهيا معي. إعملوا ما أمركم به ولاتفكروا بأي شخص اخر لأني أنوي التصدي للمسألة وخوض معركتها. فلو رحلت عنكم غداً لتشتت شملكم وذهبت ريحكم. فإعملوا بما أقول وتعالوا معي.

فأجاب الجميع بصوت واحد محرضاً بعضهم بعضاً:

- مادمنا هنا. ودمنا نعيش بفضله فعلينا أن نذهب معه ونساعده على القيام بما يراه، مادام فينا نَفَسٌ يتردد. لقد توصل الى حلّ أفضل من حلّنا. إذ ما أن يتركنا ويرحل حتى يقوم أعداؤنا بطردنا. علينا أن نفكر ملياً بالأعمال التي بدأناها هنا وبعظمتها وأهميتها ونحن أعجز الناس عن إنجازها بدقّة وسيقول أعداؤه بأنه رحل لعجزه عن إنجاز المشاريع التي بدأها.

والى جانب هذا أبدوا عدداً من الملاحظات الوجيهة تتعلق بالمسألة. وكان أول من إستنهض الهمم وبثّ الحماسه في النفوس، الفتى الروماني (ماكاروني) وتطوع عدد من الألمان والفرنسيين لمرافقتنا فكنّا عشرة بمجموعنا. فإنطلقنا وأنا ثابت الجنان شديد العزم على أن لا أوخذ حيّاً.

عندما مثلت أمام قضاة محكمة الجنايات وجدت كاترينا وأمها وما أن دنوت منهما حتى شاهدتهما تضاحكان المحامي وتقدمت بجرأة من القاضي الذي كان يجلس على مقعد مرتفع وراء منصة القضاء منتفخاً بديناً كبير الجرم. لما وقعت أنظاره عليّ هزّ رأسه مهدداً وقال بصوت خفيض:

- مع إن إسمك (بنڤنوتو) فأنت في هذه الساعة (مالڤنوتو).[٤٧]

سمعت ماقال وصحت مرة أخرى:

- قل لي لماذا إستدعيتني، وعجّل به.

فإلتفت القاضي الى (كاترينا) وقال:

- كاترينا! حدثينا بكلّ ماجرى بينك وبين (بنڤنوتو).

فأجابت إني كنت أواقعها بالطريقة التي يمارسونها في أيطاليا. فإلتفت اليّ القاضي وقال:

- أتسمع ماتقوله (كاترينا) يابنڤنوتو؟

فأجبته بقولي:

- لو واقعتها على الطريقة الأيطالية، فإني أريد أن أرزق بولد ليس إلاّ مثلما تفعلون أنتم.

فأوضح لي القاضي ماتقصده بقوله: إنها تعني غير ذلك أي إنك واقعتها بغير الشكل الذي يأتي به الأطفال. فأجبت: إذن لابد وأنه يشير الى طريقة فرنسية لا أيطالية. مادام هو أعرف بها منيّ، ثم طلبتُ منها أن تكرر عباراتها ثلاث مرات ففعلت البغي الساقطة ذلك... ثلاث مرات واحدة بعد الأخرى دون حياءٍ. ما إن إنتهت حتى صحت بأعلى صوتي:

- سيدي القاضي وأنت نائب أعظم ملك مسيحيّ. إني أطلب منك إحقاق الحقّ. فليس بخافٍ عليّ أن القانون يعاقب مرتكبي هذه الجريمة بالحرق. وهي الآن تعترف بإقدامها على هذه الفعلة فيما أصرّ أنا على أن لا شأن لي بها. وأمها الشمطاء هي الآن شريكة لها وهي لهذه الجناية وغيرها تستحق

(٤٧) يعني سيء المقدم.

الحرق أيضاً. وإنى أطالب بإنفاذ حكم العدالة.

بقيت أردد العبارة الأخير بصوت جهير مطالباً بحكم الموت على المحرقة لأمّها ولها. وقلت للقاضي إني سأذهب الى الملك حالاً وأخبره بالظلم الذي لحقني من نائبه في محكمة الجنايات إن لم يبعث بها الى السجن بمحضر منيّ. وبالصخب الذي أحدثته بدأوا يخفضون أصواتهم، فرفعت صوتي أكثر من الأول وراحت العاهر الصغيرة وأمها تبكيان وصحت بالقاضي:

- احرقهما! احرقهما.

بعد ان وجد القاضي الأمور لاتسير وفق الخطة التي رسمها لطّف من لهجته وأخذ يعتذر لضعف النساء وسهولة وقوعهن في الغواية. ومن هذا إستخلصت بأني فزت بمعركة عظيمة. وأسرعت والدنيا لاتسعني بالخروج من المحكمة وانا اطلق عبارات التهديد. في الواقع كنت على أتم الإستعداد لأدفع خمسمائة كراون كيلا أقف في هذا الموقف. وإجتزت العاصفة وشكرت الله من كلّ قلبي.

إذا ماشاءت الأقدار أو قلّ سوء الطالع كما يحلو لنا أن نسمّيه- ان تضطهد إنساناً فإنها لاتفتقر الى وسائل جديدة لإعتراض سبيله. وقد حسبت أني بتغلبي على هذه المحنة العاصفة، قد سلمت من معاندة القدر لي ولو الى حين، إلاّ أنه وقبل أن ألتقط أنفاسي وبعد هذا الخطر الماحق، هُددت بإثنين آخرين معاً. ففي خلال ثلاثة أيام واجهت محنتين كانت كل واحدة منهما كفيلة بإيرادي حتفي. وماحصل هو أني قصدت (فونتنبلو) للإتصال بالملك: اذ كان قد كتب لي رسالة يقول فيها إنه إختارني لعمل قوالب كل المسكوكات المتداولة في المملكة وأرفق بالرسالة بعض الرسوم التخطيطية لتهديني الى مايرغب فيه، إلا أنه أطلق لي الحرية في التصرف بالشكل الذي يحلو لي. فعلمت عدة نماذج وفقاً للجمال والأناقة اللذين يقضي بها الفن وبحسب ما تفتق عنه خيالي. وبعد أن بلغت (فونتنبلو) إبتدرني (مسيو دي لافا M.de la Fa) وهو أحد أمناء خزانته الذين كلفهم بالنظر في حاجاتي قائلاً:

- فليكن معلوماً لديك يا بنڤنوتو أن الرسام (بولونيا) قد فاز من الملك بعمل نصب النافورة العملاق: وأنه يسحب منك كل المهام التي أناطها بك ملكنا في السابق الخاصة بهذا المشروع وأن تودع اليه. وقد إعتبرنا هذا السلوك بعيداً عن اللياقة. ويخيل لنا أن هذا الأيطالي إبن بلدك قد أساء معاملتك كثيراً. لأن من حقك أن تستأثر بالعمل وحدك نظراً لتفوقك بتصاميمك. لم ينجح الرجل في إنتزاع العمل منك إلاّ بتدخل وشفاعة (مدام دي تامپ)، وها قد مضت عدة أشهر على تكليفه بالنافورة ولم تبدر إشارة منه تدل على شروعه فيه ولم يقم بأي عملٍ تحضيريّ.

فقلت وأنا مشدوه:

- كيف إني لم أسمع شيئاً عن هذا؟

فأخبرني إن (بولونيا) قد أبقي المسألة سرّاً وانه لم ينل المهمّة إلا بعد مشقة عظيمة. إذ لم يكن الملك يريد أن يعهد بها اليه، ولكنه نزل عند إلحاح (مدام دي تامپ). ولشعوري العميق بالظلم الذي حل بي بإنتزاع العمل الذي لم أنله إلا بعد الكدح والجهد، قررت أن أقوم بعمل حاسم يكون فيه فصل

الخطاب. وإنطلقت حالاً الى منزل (بولونيا) وسيفي في عاتقي. فوجدته يطالع في غرفته. دعاني الى الدخول ورحّب بي بأسلوبه اللومباردي المعهود. وسألني عن الغرض من حظوته بزيارتي فقلت:

- غرض جيد جداً، ومهم جداً.

فأمر الرجل خادمه بإحضار الشراب وقال:

- فلنشرب معاً قبل أن نبحث في أي موضوع فهي العادة المتبعة في فرنسا.

ياسيد فرانشيسكو. اعلم ان المسألة التي يجب أن نبحثها لايمكن ان نفتتحها بالشرب وربما أمكننا ذلك فيما بعد.

ثم بدأت أحاججه قائلاً:

- ان من يطلب لنفسه الإحترام من سائر البشر عليه ان يثبت بسلوكه انه مستقيم الخلق وأهل لذلك وبخلاف ذلك فإنه يهدر سمعته ويفقد مكانته. وإني لعلى علم بأنك لاتجهل ماكان من أمر إناطة الملك بي عمل النصب العملاق - وهو كان مطروحاً على بساط البحث طوال ثمانية عشر شهراً ولم تتقدم أنت أو أحد غيرك ليضيف كلمة واحدة الى ماقيل حوله. لقد أثبت كفاءتي للملك العظيم بما أنجزته من آثار وقد حازت تصاميمي رضاه فأوكل اليّ القيام بهذا العمل الجليل. ولم أسمع خلال هذه الأشهر بأن العمل قد أنيط بك وانك إختلسته مني إلا في هذا اليوم. لقد نلت التفويض بالعمل بفضل إنجازاتي الرائعة. وإنك إنتزعته بلجوئك الى الكلام الفارغ.

فكان جواب (بولونيا) هذا قوله:

- لكن كلّ إنسان يجري وراء مصلحته يا بنڤنوتو وهو يستخدم كلّ الطرق المتيسّرة له. فإذا كانت هذه رغبة الملك فكيف يكون بوسعك معارضتها؟ إنك تضيّع وقتك. بعد أن تمّ كلّ شيء وأصبح العمل في عهدتي. والآن قل لي ماتريده فأنا مصغ.

فقلت هذا: "الا فلتعلم يا فرانشسكو بأن لدي الكثير مما يمكنني قوله. وبكثير من المنطق المعقول والنقاش سأرغمك على الإقرار بأن أساليبك التي إستخدمتها وتحدثت عنها ليست بالتي يمارسها الناس الفضلاء والعقلاء. إلاّ أني سآتي الى النقطة موضوع البحث بكلمات مقتضبة: فأرهف أذنيك وأضغ جيداً الى ما أقول فهو خطير.

تحرك الرجل وكأنه يريد الوقوف إذ رأى سحنتي منقلبة ووجهي مكفهراً تماماً. فقلت له إن الوقت لم يحن بعد للحركة وأن عليه أن يبقى جالساً ويصغي اليّ. ثم أردفت قائلاً:

- تعلم يا فرانشسكو بأن العمل الأول كان قد أنيط بي. وإن الوقت قد فات على أيّ أحد لإثارة المسألة مجدداً وبشكل مقبول. والآن أقول لك إنّي سأكون راضياً لو صنعت نموذجاً وقمت أنا بعمل نموذج جديد غير ذلك الذي عملتُه أولاً. وبدون أي لغط وضجة نحملهما الى الملك العظيم، فمن كان تصميمه أفضل حقّ له أن يتولى العمل بالنافورة. وإن قدّر لك أن تفوز في المباراة، فسأزيل من ذهني أي أثر للشعور بالضرر الذي ألحقته بي وسأبارك لك في يديك وأعتبرهما أجدر من يديّ بهذا المجد والشرف المؤثل. ألا فلنتفق على هذا ولنكن أصدقاء وإلاّ فنحن أعداء بعضنا لبعض.

والله الذي هو الى جانب الحق دائماً وأنا الذي أعرف كيف أثبته، سيكشف لك عن الغلطة التي إرتكبتها.

أجاب فرانشسكو:

- العمل في عهدتي. ومادمت قد كُلّفت به فليس في نيتي المخاطرة بما أملكه.

قلت:

- أي فرانشسكو. إنك تحيد عن الطريق السليمة؛ الطريقة العادلة والمعقولة ومادمت كذلك فإني سأريك الطريق الأخرى وهي مثل طريقك قبيحة وكريهة، فإصغ لقولي هذا. إن سمعتك تتلفظ بكلمة واحدة بشأن عملي هذا الذي ظفرت به فسأقتلك دون تردد كأني أقتل كلباً. إننا لسنا الآن لا في بولونيا ولا روما ولا فلورنسا- وحياتهم هنا تختلف- إن سمعت بأنك تكلمت مع الملك أو أي شخص آخر حول هذا الموضوع فسأنزع عنك روحك عنك بوسيلة ما أو بأخرى. فلتقرر أيّاً من السبيلين تسلك: السبيل الصائبة الأولى التي إقترحتها أم السبيل الثانية التي تقدمت بها الآن؟

حار الرجل فيما يقول أو يعمل، وملت الى أن أنفذ ما صممت عليه في تلك اللحظة لا إرجاءه وترك الوقت يمرّ ويضيع مني. وكان كلّ ما إستطاع فرانشسكو قوله هو:

- إن كان تصرفي قميناً بالرجل المستقيم فلن أخشى شيئاً في هذه الدنيا.

فقلت:

- بالحق نطقت. ولكن لو فعلت العكس فهناك كلّ مبرر لخوفك، لأن القضية خطرة.

ثم إنصرفت فوراً وتوجهت لرؤية الملك ومكثت عنده طويلاً نتبادل الرأي حول مسكوكاته ولم نتوصل الى إتفاق كامل حولها. وقد أقنعه مجلس شوراه الذي كان مجتمعاً عنده بأن النقود يجب ان تُسكّ على الطريقة الفرنسية مثلما كانت حتى هذا الوقت. وكان ردّي أن جلالته إستقدمني من إيطاليا لأنجز له عملاً طيباً. فإن شاء جلالته أن أعمل العكس فإن قلبي لايطاوعني عليه. ثم أُرجيء البحث في القضية الى وقت آخر. وقفلت راجعاً الى باريس دون وقفة.

ما إن ترجلت حتى سعى اليّ أحد أولئك الخدم الذين يبحثون عن الشرّ ليقول لي إن (پاگولو ميچيري) قد إستأجر منزلاً للعاهرة (كاترينا) وأمها وإنه دائم التردد إليهما وإنه كان يردد كلما تكلم عنيّ قوله ساخراً متهكماً:

- وضع (بنڤنوتو) الوزّة لحراسة الخسّ ظانّاً أني لن آكله: وهو الآن قانع بالتفاخر في كلّ مكان بما عمله ظانّاً بأني أخشاه. ولكن ها هنا سيفي وخنجري في خصري يثبتان له أنهما ماضيا الحدّ أيضاً. وإني فلورنسي مثله ومن أسرة (ميچيري) التي تعلو أسرة (چلليني) شرفاً ومحتداً.

ان الوغد الذي حمل اليّ هذه القصة أدلى بها بشكل جعل الدم يغلي في عروقي وركبتني الحمى (وأنا أستخدم كلمة الحمى بمعناها الحقيقي). إن الثورة العصبية العنيفة كفيلة بإيرادي حتفي إن لم أطّلع على الحافز وأجد الدواء في التنفيس عنها ما تيسّر لي ذلك. أمرت العالم الفراريّ (كيوچيا) الذي يشتغل عندي أن يرافقني وتبعني خادم يقود جوادي ولما بلغت منزل هذا السافل وجدت الباب

مواراً، فدخلت عليه وكان مسلحاً بسيفه وخنجره جالساً فوق صندوق وذراعاه تطوقان عنق (كاترينا). وسمعته وأنا داخل يمازح أمها حولي. فإقتحمت الباب وأشهرت سيفي وسددت ذبابته الى حنجرته من غير أن أدع له وقتاً ليتذكر بأنه يملك سيفاً أيضاً. وصحت به:

- صلّ صلاتك يا أحقر الجبناء فأنت في عداد الموتى.

بقي مسمّراً في مجلسه وصرخ عدّة مرات:

- أمي العزيزة. عونك!

كنت عازماً على قتله مهما كانت النتائج. ولكن نصف غضبي تلاشى عندما سمعت إستغاثته المخنثة. في عين الوقت أمرت (كيوچيا) أن يحول دون خروج البنت وأمّها من الدار. إذ كنت قد قررت عندما قصدته أن ألحق الأذى بالبغيتين الحقيرتين بقدر ما ألحق به من أذي. ولذا أبقيت ذبابة سيفي لاصقة بحنجرته (أنخسه بها نخسات خفيفة بين آن وآخر) وأنا أهدده وأتوعده. ثم عندما وجدته مستكيناً لايأتي بأقل مجهود مستسلماً لاتبدر منه مقاومة حرت في أمره ولم أدر ما أصنع به. وبدا وكأني سأظل أتهدد وأتوعد الى ما لا نهاية. ثم خطر لي خاطر فجائي وهو أن أحملهما على الزواج كأهون الشرّين ولكيما أنال ثأري فيما بعد. فقررت ذلك وقلت:

- إخلع هذا الخاتم من إصبعك أيها الجبان الرعديد وتزوجها وبهذا سأصيب إنتقامي بالشكل الذي تستحقّ.

فأجاب في الحال:

- إعمل ماتريد شرط ألاّ تقتلني.

فأمرته بوضع الخاتم في إصبعها. ونحّيت سيفي قليلاً عن عنقه. ففعل ذلك ثم قلت:

- ليس هذا بكاف. أريد إثنين من مسجلي العقود حتى يتم ذلك بعقد صحيح.

ثم أمرت (كيوچيا) أن يذهب لإستدعاد إثنين من مسجلي العقود ثم إستدرت الى الأم و البنت ووجهت كلامي لهما بالفرنسية:

- لن يلبث أن يأتي مسجلا العقود والشهود. وسأفتك دون تردد بأول واحدة منكما تنطق بكلمة بخصوص ماوقع واتبع الباقيين بها. فلا تنسيا ذلك.

وقلت لـ(پاگولو) بالأيطالية:

- إن أبديت أيّ إعتراض على ماقررته فكلمة واحدة منك ستؤدي الى طعنات متتالية تمزق أحشاءك.

فقال:

- كلّ ما أرجوه منك هو أن لا تقتلني وسأفعل ماتريد.[٤٨]

وأقبل مسجلا العقود وتم تنظيم عقدٍ دقيق محكم الصيغة وبعدها زايلتني الحمى وإنفثأ غضبي. ودفعت أجر المسجلين ثم عدت الى داري.

(٤٨) في ذلك الزمن كان يشترط لصحة هذه الزيجة المدنية مراسيم دينية مخصوصة لاتتمّ إلاّ بحضور كاهن. إلاّ إذا كان مسجل العقود الذي جاء به چلليني كاهناً كاثوليكياً .

في اليوم التالي جاء (بولونيا) الى باريس خصيصاً ليبعث اليّ بـ(ماتيو دل نازارو) وسيطاً، فذهبت لزيارته فقابلني بوجه باشّ ورجا منيّ أن أنظر إليه كصديق وأخ عزيز، وقال إنه لن يتفوه بكلمة واحدة حول العمل مرة أخرى. ولإدراكه بأني على حق.[٤٩] لولا ماجبلت عليه من الصراحة في الإقرار بأخطائي وركوب متن الشطط في بعض المواقف. فإن القاريء قد يداخله الشك في صحة أقوالي عند روايتي لتصرفاتي الحسنة وبناء على هذا لايسعني إلاّ الإقرار بالخطأ الشنيع الذي إرتكبته بحقّ (پاگولو ميچيري) بإنتقامي هذا. ولو دريت انه على هذا القدر من الجبن وخور النفس لما فكرت قطّ في إلباسه ثوب العار بهذا الشكل اللإنساني. فلم يكفني إكراهه على الزواج بهذه العاهرة الوضيعة، بل جعلتها تقف فيما بعد أمامي عارية كنموذج لقاء أجرة يومية قدرها ثلاثون صولدياً كيما أبلغ ذروة إنتقامي. كنت أدفع لها مقدماً حسب طلبها ثم تطلب وجبة غداء جيدة وبعدها أقوم بإفتراشها إنتقاماً وأنا أسخر بها وبزوجها للقرون العديدة التي أركّبها له. والشيء الرابع الذي كنت أسخرها له هو حملها على إتخاذ أوضاع شاقة ساعات بطولها. وكان هذا يرهقها الى حدّ الإنزعاج الشديد بقدر ماكان يسرّني. فقد كانت رائعة التكوين وأفادتني فائدة عظيمة في فنّي.

ولما وجدت إني لا أعاملها بالرعاية التي تعودتها مني قبلاً. ثار غضبها وبدأت تتكبّر وتفاخر بالطريقة الفرنسية بزوجها قائلة أنه رجل من حاشية حاكم كاپوا Capua (بييرو ستروزي)[٥٠] وإنه إنتظم في خدمته. وكما ذكرت راحت تتحدث عن زوجها وما أن سمعت ذكره حتى كدت أختنق غيظاً. إلاّ أني ضبطت نفسي بجهد كبير. فقد كان يصعب عليّ العثور على نموذج أنسب لعملي منها. وقلت لنفسي" أني أنال نوعين من الإنتقام بهذا الشكل: الأول إنها متزوجة وهذه القرون هي قرون حقيقية وليست مثل قرونها عندما كانت بغياً لي. ولهذا فأني أصيب ثأراً ممتازاً منه وإنتقاماً عظيماً منها بجعلها تتخذ هذه الوقفات والأوضاع المتعبة التي تكسبني سمعة وربحاً فماذا أريد أكثر من هذا؟" وفيم أنا أقلب الأمور وأزنها بهذا الشكل ضاعفت الحقيرة اهاناتها الى جانب مفاخرتها بزوجها وأدت أقوالها الى تفجير كوامن حقدي وأسلمتني الى حالة من الجنون فأمسكت بها من شعرها وجررتها جراً فوق أرضية الغرفة وأنا أوسعها ضرباً وركلاً حتى خارت قواي ولم يكن ثمّ أحد ليخفّ الى إنقاذها. وبعد أن نالها مانالها حلفت بأنها لن تأتي بعد الآن. فأدركت لأول مرّة الخطأ الذي وقعت فيه لأني سأفقد بها فرصة عظيمة للشهرة. كما أدركت الى جانب هذا أنها أصابت منيّ بما غطى جسمها بالرضوض والكدمات، فلو عادت فلن تكون ذات فائدة لي لمدة لاتقل عن أسبوعين.

أرسلت خادمة عجوزاً إسمها (روپرتا) لمعالجتها وتمريضها وإلباسها ثيابها وكانت إمرأة عطوفة رقيقة القلب فجاءت بطعام وشراب لها ودهنت جراحها البالغة بشحم الخنزير وتناولت طعامها معها. وأتيتا على ماتبقى من الشحم. ثم إرتدت ثيابها وخرجت وهي تلعن كلّ الأيطاليين والملك الذي

(٤٩) يبدو إن (پريماچيو) فاز بالعمل أخيراً وربما كان ذلك بعد رحيل چلليني.

(٥٠) هو ليوني ستروزي كان قائداً عسكرياً مثل أخيه (پييرو) وخدم في قوات فرنسا وقُتل في حرب سيينا (١٥٥٤). وكاپوا بلدة تقع على بعد (٣٥) كيلومتراً شمال ناپولي.

يأويهم وقصدت منزلها وهي تبكي وتتمتم طول الطريق، في الواقع كانت هذه المرة الأولى التي وجدت نفسي أرتكب فيها غلطة شنيعة. وراحت خادمتي (روپرتا) تعنفني أيضاً بقولها:

- ما أقساك إذ تعامل هذه الفتاة الجميلة بهذه الفظاظة.

حاولت إختلاق الأعذار لنفسي، فقصصت على (روپرتا) حكاية غدر (كاترينا) وسفالة أمّها وكيف عاملتاني أثناء سكناهما عندي. إلاّ أنها أصرّت على لومي قائلة إن ما تظلمتُ منه لاشيء إذ هي عادة جرى عليها الفرنسيون. وإنها تعلم عن يقين بأنه ليس في فرنسا زوج واحدٌ إلاّ ومعه زوج قرونه. فقهقهت ضاحكاً لقولها ثم طلبت منها أن تذهب وتعود (كاترينا) لأني أودّ أن يكون في وسعي إستخدامها لإكمال عملي. فعنفتني (روپرتا) بقولها إني لا أعرف شيئاً عن الحياة، إذ ما أن تبدو تباشير الصبح حتى أرى (كاترينا) قادمة بمحض إختيارها. وإن أرسلتُ مستفسراً عن حالها أو ذهبت لزيارتها فسوف تترفع وتتمنع ولن تأتي مطلقاً.

في اليوم التالي وجدت (كاترينا) بالباب وهي تطرقه طرقات عنيفة وكنت بالطابق الأرضي فهرعت وخيّل لي أنه فعل مجنون، أو أحد يسكن في المنزل. ولما فتحته قابلتني المسكينة بضحكة وألقت بنفسها عليّ وطوقت عنقي وراحت تقبّلني وتضمنّي اليها متسائلة عمّا إذا كنت غاضباً منها؟ فقلت كلا. فقالت: إذن فقدّم لي فطوراً جيداً. فوضعت أمامها طعاماً وشاركتها فيه كدليل على المصالحة. ثم قامت وإتخذت الوضع الذي أشرت به وباشرت عملي. وبعد ذلك أخذتها الى الفراش فراحت تناكدني وتثيرني كما فعلت قبلاً وفي نفس الساعة فضربتها قليلاً وتكرر ذلك عدة أيام على نفس الحالة والوتيرة بتغيير طفيف.

في تلك الأثناء فرغت من تمثالي بصورة مرضيّة وتهيأت لصبّه بالبرونز فواجهت بعض الصعوبات سأتخطاها ولو ان شرحها قد يكون على درجة كبيرة من الفائدة من الناحية الفنية. لأن ذلك سيأخذ مني وقتاً طويلاً. وسأكتفي بالقول ان القالب كان ممتازاً جداً والسبك جرى بدقة ونجاح تام.

وفي أثناء إنشغالي بهذا العمل خصصت ساعات معينة من النهار لأشتغل في (المملحة) وساعات أخرى للعمل في (جوپتر). ولما كان عدد الرجال الذين عهدت إليهم بالعمل في المملحة أكثر من أولئك الذين أرصدتهم للعمل في (جوپتر)، فقد حققت إكمالها الى اخر تفاصيلها. وكان الملك قد عاد الى پاريس فقصدته ومعي (المملحة) وكنت قد ذكرت أنها بيضوية الشكل إرتفاعها حوالى ثلثي قدم وكلها من الذهب الخالص وقد إشتغلتها بطريقة الحفر. وكانت كما بيّنت تمثل البرّ والبحر يجلسان متقابلين متقاطعي الأرجل ويد البحر ممتدة داخلة في البرّ والبحر يدخل في البرّ وكان منظرهما آية في الجمال. وضعت في يد البحر اليسرى حربة ذات شعب ثلاث وجعلت يده اليمنى مستقرّة على سفينة مرتفعة أكثرت من نقشها وزخرفتها وهي مجوفة ليوضع فيها الملح. وتحته صوّرت جياده البحرية الأربعة وهي تشبه الخيول المعروفة من رأسها حتى صدرها. ومن سيقانها حتى حوافرها الأمامية. أمّا أواسطها وأجزاؤها الخلفية الأخرى فهي تشبه أبدان الأسماك، أمّا ذيولها فقد ألويتها بشكل جذاب

للغاية وأجلست البحر فوقها جلسة فيها كبرياء وعظمة تحيط به أنواع لأسماك وحيوانات البحر. ومثّلتُ الماء بأمواج مكفتة بالميناء الزرقاء مقلداً لون الماء بشكل أخّاذ. وأما البرّ فقد مثّلتهُ بإمرأة جميلة للغاية ووضعت في يدها اليمنى (كورنوكوبيا) وكانت عارية كزميلها البحر. ووضعت يدها اليسرى فوق معبد آيوني صغير دقيق الحفر والزخرفة وهو مجوف لوضع الفلفل. وتحت المرأة صورت نخبة من أجمل حيوانات البرّ وطليت بالميناء جانباً من الصخور وتركت الباقي ذهباً مجرداً. وثبتُّ المملحة على قاعدة من الأبنوس الأسود بالحجم المناسب وأحطتها بحاشية رفيعة مزدانة بأربعة تماثيل ذهبية بنصف بروز تمثل الليل والنهار والفجر والغسق. وبأربعة تماثيل أخرى تمثل الرياح الأربع الرئيسة وطليت بعض الجوانب بالميناء، بدقة لامزيد عليها.[٥١]

عندما وضعت القطعة أمامه، خرجت من فمه صرخة إعجاب ولم يستطع تحويل نظره عنها. ثم طلب مني أن أعيدها الى منزلي وسيخبرني في الوقت المناسب مايقرر بشأنها. ففعلت ما أمرني ودعوت عدداً من أصدقائي الخُلَّص لمأدبة عشاء قضيناها في مرح وأنس. ووضعت المملحة في وسط المائدة وكنا بذلك أول من يستعملها. ثم إني وجهت إهتماماً الى (جوبتر) الفضيّ والطست الكبير الذي تقدم ذكره وكان العمل فيه شاقاً لكثرة ماحشدت فيه من زخرف ونقوش.

أفلح (بولونيا) الرسام في إقناع الملك بإرساله في بعثة الى روما مع رسائل توصية ليستنسخ له نماذج جبسية بالحجم الطبيعي لأشهر المنحوتات والتماثيل الفنية الأثرية مثل تمثال كليوپاترا، و(لاوكون Laocoon) و(ڤينس) و(كومّودس Commodos) و(زنگارا) و(أپوللو). وهي في الواقع أجمل وأنفس المنحوتات في روما. وقال (بولونيا) للملك ما أن يشاهد جلالته هذه الآيات المعجزة في عالم الفن حتى يكون قادراً على تكوين رأيه الخاص في فن التصميم والنحت. لأن ماشاهده من آثار الفنانين المعاصرين لايُداني بالدقة والإبداع تلك التماثيل الأثرية. وزوّده الملك برسائل التوصية بكلّ رغبة فرحل الحيوان[٥٢] على بركة إبليس. كان أعجز من أن ينافسني بتصميم من بنات أفكاره وإحراز قصب السبق عليّ. فعمد الى هذه الحيلة اللومباردية المعهودة. وهي الإنتقاص من أعمالي بمضاهاتها بالتماثيل الأثرية المستنسخة. ومع إنه أتقن عمله إلاّ أن أنه خاب في إحداث الأثر الذي قصده وإرتدّ عليه، فكانت النتيجة عكس ما أمل. وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه المناسب.

قطعت صلتي بالعاهر (كاترينا). وإختفى زوجها الفتى البائس من پاريس. ولما كنت أهمّ بعمل نموذج مجسم لنافورة (فونتنبلو) الذي صببته بالبرونز. وإكمال تمثاليّ (ڤكتور) اللذين سيدخلان في أسفل العقادة نصف الدائرية للباب، فقد إتخذت لي نموذجاً اخر وهو فتاة فقيرة في الخامسة عشرة من العمر بديعة الجسم كستنائية الشعر تشبه الحيوان البرّي غير المدجّن بحركاتها السريعة ونظراتها الكسيرة وفمها المطبق الساكت. لذلك أطلقت عليها إسم (سكورزوني)[٥٣] أما إسمها الأصلي فهو

(٥١) تلك واحدة من أشهر آثار چلليني الباقية. وهي الآن في متحف ڤيينا. كانت قد أهديت لأرشيدوق النمسا فرديناند وبقيت في قلعته (إمپراس) في التيرول. وإشتراها بعد وفاته الإمبراطور رودولف الثاني.

(٥٢) ساعده في عملية الإستنساخ الفنان ڤينيولا Vignola. وبعض هذه النسخ موجود في متحف اللوڤر.

(٥٣) Scorzone بالإيطالية معناها الأفعى الصغيرة (الصلّ).

(جان). وأنهيت نموذجي لباب (فونتنبلو) مع الڤكتورَين بكلّ نجاح بفضل إتخاذي إياها نموذجاً. وكانت عذراء باكراً وحملت مني وولدت طفلة في الساعة الثالثة عشرة من السابع من حزيران (١٥٤٤) وكنت إذذاك في الرابعة والأربعين. فأطلقت على المولودة إسم (كوستانزا) ورفعها الأستاذ (گويدو گويدي) طبيب الملك وصديقي فوق جرن العماد، فكان أبا عمادها الوحيد إذ جرت العادة في فرنسا أن لايكون للطفل أكثر من أب عماد واحد ووالدتا عماد. فإتخذت لذلك السيدة (مادلينا) زوج الأستاذ (لويجي آلاماني) النبيل الفلورنسي والشاعر الفحل مع زوج السيد (رودريگو دل بيني) أحد مواطنينا الفلورنسيين ومن تجار پاريس الأغنياء، وهي سيدة فرنسية جليلة القدر وهو أول مولود من صلبي على ما أتذكر. وقد أوقفت عليها بائنة بالمقدار الذي إقترحته خالة الطفلة واليها عهدت بتربيتها والعناية بها. وبعد هذا إنقطعت لي أية علاقة بها.

إنكببت على عملي وتقدمت فيه كثيراً، وشارفت على إكمال (جوپتر)، كذلك فرغت من (الطست) وبدأت تقاسيم باب (فونتنبلو) تظهر للعيان. وفي أثناء ذلك عاد الملك الى پاريس.

أوردت تفاصيل ميلاد طفلتي الذي وقع في العام ١٥٤٤. إلاّ أن الزمن الذي أروي حوادثه الآن كان العام ١٥٤٣. وقد حشرت موضع الطفلة هنا عمداً، لئلا أقطع شجون حديثي عن الأمور التي تفوقها أهمية. ولن أذكر إبنتي بعد هذا إلا في الموضع المناسب. قلت عاد الملك الى پاريس وخفّ لزيارتي قبل أن يستقرّ به المقام، فوجدني قد قطعت أشواطاً بعيدة في أعمالي. وكان منظرها وهي منتصبة في المصنع مما يبهر العين ويسرّها. وطرت فرحاً للإرتياح الذي بدا في أسارير الملك وغمرتني السعادة. أنا الذي تحملت كل المشاق للوصول الى هذه النتيجة. ومن دون تنويه مني تذكر جلالته فجأة أن كردينال (فرارا) لم يولني إهتماماً ولم يدفع لي الراتب المقرر لي أو أي شيء مما وعدني به، فإلتفت جلالته الى الأميرال مرافقه وصار يتحدث إليه همساً معرّضاً بتصرف الكردينال ازائي. وكيف أهملني ولم يدفع لي شيئاً وأردف يقول انه سيتدارك الأمر بنفسه. بعد قلة شكواي وسكوتي الذي قد ينتهي برحيلي دون كلمة واحدة، مخلفاً كلّ أعمالي ورائي.

عاد جلالته الى مقره وبعد أن تغدّى، طلب من الكردينال أن يصدر نيابة عنه أمراً الى مدير الخزانة الملكية بدفع سبعة آلاف كراون ذهبي لي على جناح السرعة، بثلاثة أقساط أو أربعة حسب الظروف وأوصاه بأن لاينسى هذا وأضاف يقول:

– عهدت إليك بـ(بنڤنوتو) لكنك نسيته.

وأجاب الكردينال أنه سينفذ كل رغبات جلالته بغاية السرور.

إلاّ أن الطبع الخبيث الذي جُبل به جعله ينسى الموضوع وفي تلك الفترة ساء الموقف الحربيّ؛ وزحف الإمبراطور بجيش جَرّار نحو پاريس. وكان الكردينال مدركاً بأنّ فرنسا هي في ضائقة مالية. في ذات يوم دار الحديث بينه وبين الملك حولي فقال:

– وجدت يا صاحب الجلالة الأقدس من الأفضل أن لايُدفع شيء من المال لبنڤنوتو. فنحن من جهةٍ في أمسّ الحاجة الى النقد، ومن جهة ثانية رأيت أنّه مبلغ إن دُفع فقد يؤول الى خسارة بنڤنوتو فوراً.

إذ ما أن يجد نفسه عامر الجيب حتى يعمد الى إبتياع عقار له في إيطاليا ويميل به الهوى ذات يومٍ فيتركك غير عابيء أو مبالٍ، لذلك هداني التفكير الى خير ما يمكن أن يقدم عليه جلالتك من تدبير في هذا الشأن. وهو أن تهبه عقاراً داخل حدود مملكتك إن شئت أن تبقيه في خدمتك.

وأيّد الملك هذا المنطق لأنه كان معسراً ليس إلاّ. لكنه أدرك وهو ذو العقل الراجح الجدير بمثل هذا الملك العظيم إن غرض الكردينال من هذه النصيحة هو طمعه بالحظوة عنده أكثر من ضرورة الأخذ بنظر الإعتبار حاجة هذه المملكة العظيمة الى المال.

ومع أنّ الملك بدا وكأنه مقتنع بحجة الكردينال كما أسلفتُ، فقد قرر في سره أن لايعمل بها، وما حصل فعلاً هو أنه عاد الى باريس كما ذكرتُ وبادر في اليوم التالي لوصوله الى زيارتي من تلقاء نفسه دون أن أتصل به.

إستقبلته وأخذته الى مختلف القاعات وقد حفلت بالعديد من الأشغال المنجزة وهي بهيئة العرض. بدأت أقدم الأشغال الفرعية وعرضت عليه أعمالاً عديدة برونزية تزيد كثيراً عمّا شاهده قبلاً ثم أخذته الى تمثال جوپتر الفضي وكدت أفرغ منه - بكل نقوشه البديعة. فحكم عليه بأنه أروع وأفخم من أن يفيه حقّه حكم أي شخصٍ. وقولته هذه لها علاقة بحادثة مزعجة جداً وقعت له قبل بضع سنوات.

ففي وقتها أي بعد إحتلال الإمبراطور (تونس)[٥٤]، كان قد زار باريس لسبق دعوة من صهره الملك (فرنسوا)، ورغب هذا في أن يقدم له هدية لائقة بإمبراطورٍ عظيم مثله. فأمر بصنع تمثال فضيّ يمثل (هرقل) بعين الحجم الذي إتخذته أنا لجوپتر. لكنه جاء بإعتراف الملك نفسه على أقبح ما وقعت عليه العين ولم يكتم رأيه فيه عن أرباب الصنعة الپاريسيين، الذين إدّعوا بأنهم أساتذة الفن من غير منافس في العالم وأوهموا الملك بأن ما أنجزوه هو أفضل ما يمكن إنجازه بمعدن الفضة وتقاضوا منه لقاء عملهم الخائب ألفين من الدوقيات، لذلك وجد الملك أن ما خرج من يدي عملٌ يكاد لايُصدق من فرط جماله ودقته وقد أنصفني والحق يقال في الحكم عليه حين قوّم جوپتري هذا بألفي دوقية ايضاً. ثم عقّب قائلاً:

- لم أدفع لهم مرتباً. وقد صرفتُ لهذا الرجل حوالى ألف كراون سنوياً. فاذا أدخلنا هذا المبلغ في الحساب. فأظن أن هذا العمل يسوى ألفين من الدوقيات.

ثم صحبته الى قطعة أخرى صنعتها من الذهب والفضة، وإنتقلت به الى عدد كبير من النماذج لمشاريع جديدة. وإقتدته قبل مغادرته الى عملاق ضخم ينتصب في مرج القلعة. فزاد عجباً وإلتفت الى الأميرال المرافق ويدعى "مونسنيور آنيبالّلا Monsignor Aniballa" قائلاً:

- الكردينال لم يدفع له شيئاً، وهو بطيء في الظهور وجلب الإنتباه لنفسه لذلك عزمت على تزويده

(٥٤) كان الدافع الذي حمل الإمبراطور (شارل الخامس) على غزو تونس، هو تزايد غارات العمارة البحرية العثمانية بقيادة خيرالدين بن بربروسه (أي خيرالدين ذا اللحية الحمراء) وبمساندة القراصنة الذين إتخذوا من تونس منطلقاً. بغارات على سواحل إيطاليا وجزرها وتهديد أملاك الإمبراطور. وقد بلغت تلك الغارات حداً مكّن العثمانيين من إحتلال جزيرة كاپري الشهيرة في العام ١٥٣٥ وهي على بعد ثلاثة أميال من مدينة ناپلي فحسب.

بكل ما يحتاجه. هؤلاء الناس لم يتعودوا المطالبة لإعتقادهم بأنّ مجهوداتهم هي التي تطالب عنهم وبالكثير. أعطوه أول دير يخلو من شاغل على أن لايقلّ إيراده السنويّ عن ألفين من الكراونات. وإن لم يوجد دير له مثل هذا الإيراد فليتقاضَ عين المبلغ من ديرين أو ثلاثة فالنتيجة واحدة بالنسبة إليه.

كنت قريباً وسمعت كلّ شيء. فأسرعت أشكر الملك وكأني تسلمت المنحة فعلاً وأردفتُ: إني سأظل قائماً على خدمته حتى اليوم الذي تكلّ فيه يدي عن العمل ومن دون أجرٍ أو عطاءٍ آخر وبأيّ شكل من الأشكال وإذ ذاك سيكون بمقدوري قضاء بقية عمري في دعة وسلام وعيش مشرّف على الدخل الذي يأتيني من هبته هذه. متذكراً دائماً حظوتي بخدمة ملك عظيم كجلالته.

إبتسم الملك إثر قولي مشجعاً وقال:

- هكذا فليكن.

وتركني وهو على أتمّ الرضى عني.

لما بلغ (مدام ديتامپ) ما أصبته من حظوة تضاعف حقدها عليَّ وقالت:

- ها أنا اليوم والدنيا ملك يميني، ودونك رجلاً خامل الشأن يستخفّ بي ويتحداني!

ومضت الى أبعد حدٍّ في إصرارها على إيذائي والإضرار بي. وأسعدتها الظروف بخبير في تقطير العطور ركّب لها بعض العطور السائلة الممتازة مما لم يكن معروفاً في فرنسا. وقدمته للملك ليعرض عليه عطوره التي حازت رضاه، وإستغلت حالة الإنشراح فيه وحضّت عطارها هذا على الطلب من جلالته ساحة لعب (التنس) في حديقتي مع بعض الغرف الصغيرة المجاورة للساحة زاعماً أني لا أشغلها. وأدرك الملك ما وراء الأكمة فرفض طلبه، وعندها إنبرت مدام (ديتامپ) لإقناعه مستخدمة تلك الفنون المعهودة التي تمارسها النساء على الرجال وأصابت مبتغاها بسهولة حين وجدت الملك في حالة من حالات الهيام التي كثيراً ما كانت تنتابه. وحققت ما إنتوته.

جاءني هذا الرجل بصحبة گروليه Grolier أمين الخزانة وهو من كبار النبلاء الفرنسيين وإبتدرني مداعباً ممازحاً حال وصوله مستخدماً اللغة الإيطالية التي كان يجيدها إجادة تامة حتى وجد المناسبة، فقال:

- نيابة عن الملك، إني أضع يد هذا الرجل على ساحة التنس والغرف الملحقة بها.

فأجبته بقولي:

- ملكنا الأقدس هو مصدر كلّ شيء. ولذلك كنت تملك ملء الحرية في دخول الساحة على أن إتخاذ إجراءات عن طريق الكتّاب العدول وموظفي القضاء أمور تبدو وكأنها محاولة نصب وإحتيال أكثر مما تبدو أمراً صادراً من ملك عظيم. لذا فلتكن على يقين بأنّي مصمم على حماية نفسي بالطريقة التي دلّني عليها الملك يوم أمس قبل أن أراجع جلالته. فإن لم تبرز لي أمراً خطياً صادراً من يد الملك فسأقذفُ برجلك هذا الذي جئت به من النافذة.

بعد أن وعى أمين الخزانة قولي نكص على عقبيه عائداً من حيث أتى وهو يهدد ويتوعّد وتركني

مثله أحرّق الإرم. ولم يكن قصدي القيام بأيّ عملٍ لإزاحة هذا الدخيل مبدئياً بل قصدتُ مسجّلي العقود الذين أصدروا قرار وضع اليد وصك التمليك وكنت جيد الصلة بهم، فأكدوا لي أنّ الإجراءات قانونية وصحيحة فعلاً وأنّها تمّت بناءً على أوامر صادرة من الملك إلاّ أنّ ذلك ليس مهماً. ولو أنّي تظاهرت ببعض معارضة وأبديتُ مقاومةً لما إستطاع الرجل وضع يده على العقار كما فعل وشاء فهذه إجراءات وأعراف قضائية تتعلق بالمحاكم ولاتتعلق بأي وجه من الوجوه بشأن إطاعة الملك أو عصيانه. فإن أفلحتُ في رفع يد هذا الرجل بعين الطريقة التي إتبعها هو في وضع اليد على العقار فنعم العمل عملي ولن أضارّ قطّ.

كان في هذه الإشارة الكفاية وشرعتُ في اليوم التالي بإستخدام أسلحتي ووجدتُ في ذلك نوعاً من التسلية والملهاة رغم ما إقتضاني من مشقة وجهد. كنت صباح كلّ يومٍ أبدأ بشنّ هجومٍ فجائيّ بالحجارة والرماح والبندقيات فأطلق بارود اً خلّباً من غير حشوة رصاصة، وأحدث عملي خوفاً عظيماً بحيث أحجم الجميع عن المبادرة الى مساعدة الرجل. وإخترت يوماً بعد أن زايلته القدرة على الصمود فإقتحمت عليه المسكن وقذفتُ به الى الشارع وأتبعته بأثاثه. ثم راجعت الملك وأعلمته بأنّي قمتُ بتطبيق النصيحة التي أسداها إليّ جلالته في الدفاع عن نفسي، بمواجهة أولئك الذين أرادوا أن يحولوا بيني وبين خدمته فإنفجر الملك ضاحكاً ثم أصدر أمراً جديداً يضمن حمايتي من أيّ تحرش آخر.

وركزت همّتي في إكمال تمثال (جوپتر) الفضيّ الجميل مع قاعدته المذهّبة وكنت قد أقمته على ركيزة خشبية لايبدو منها إلاّ جزءٌ صغير تستند الى أربع كرات خشبية صلبة صغيرة يغيب أكثر من نصفها في محاجر كما تغيب البندقة في مرمى القوس الثقيل. وقد جعلتها بشكل يسهل معه على الطفل الصغير دفع التمثال الى الأمام أو الخلف أو إدارته من غير بذل أقلّ مجهود. بعد أن سوّيتُ كلّ شيء طبق ما رسمت حملتُ جوپتر الى (فونتنبلو) حيث يقيم الملك.

في حينه كان (بولونيا) قد عاد من روما ومعه التماثيل المستنسخة التي نوهت بها وبلغني أنه تكبد عناءً ولقي مصاعب جمّة في عملية صبها بالبرونز. لم أعلم بذلك في مبدء الأمر لأنه أحاط عمله بسرية تامة. وكذلك لأن (فونتنبلو) كانت تبعد عن پاريس بما يزيد عن أربعين ميلاً.

وهكذا بقيتُ أجهلَ الناس بالحكاية. ولما طلبتُ من الملك تخصيص موضع لجوپتري، قالت (مدام ديتامپ) وكانت حاضرة، ليس ثَمَّ موضع أفضل وأنسب له من سرادقه الجميل وهو ما ندعوه في (توسكانيا) باللوجيا Loggia أو بتعبير أدقّ بالرواق. لأن كلمة لوجيا تطلق على القاعة المفتوحة من أحد الجوانب.

كان طول هذه القاعة نحواً من مائة خطوة، حشد فيها كثير من النفائس وكسيت جدرانها بلوحات من إبداع رسامنا الفلورنسي العبقري روسو Rosso[٥٥] وإجتمع تحت تلك الرسوم عدد كبير من

(٥٥) جيوڤاني باتستادي اياكوبو دي روسي Giovanni Batista di Iacopo de Rossi (١٤٩٤-١٥٤٠) رسام إيطالي من مواليد فلورنسا أناط به فرنسوا الأول زخرفة قصره (شاتو فونتبلو).

المنحوتات بعضها كاملٌ وبعضها بالنحت البارز. وكان عرض القاعة نحواً من عشرين خطوة.

أقبل (بولونيا) بكل قطعه الأثرية وقد صبت بمعدن البرونز صباً متقناً. وقام بترتيبها ترتيباً أخّاذاً بارعاً كلّ قطعة منها تستوي فوق قاعدة. وكما سبق فقلت كانت نسخاً لأروع ما أبدعه الفن منقولاً عن التحف الأصلية في روما. وجوبهتُ بهذا المنظر الرائع الذي تمّ تنسيقه بكل مهارة عندما جئتُ بجوبتري ولم أتمالك من القول لنفسي:

- إنها معركة حقيقية، فعونك ياربّ.

إخترتُ أفضل موضعٍ ممكن. ورحت أنتظر مقدم الملك.

كنت قد وضعت في يد جوبتر اليمنى "شعاع صاعقة" بشكل يبدو وكأنه يهمّ بقذفها. ووضعت في يده اليسرى كرة. وبين ألسنة النار في الصاعقة دسست فتيلة مشبعة بالشمع بيضاء، وأحكمتُ إخفاءها عن العين.

نجحت (مدام ديتامپ) في إلهاء الملك وإشغاله حتى الليل وفي نيتها أن تضمن لي أحد مصيرين: إما أن لايأتي الملك أبداً. وإما أن يخفي ظلام الليل مزايا عملي الفنية.

لكن لما كان الله يجزي أولئك الذين يضعون فيه رجاءهم خير جزاء، فقد جاءت النتيجة خلاف ما بُيّت لي. لأني قمتُ عند حلول الظلام بإشعال الفتيلة المختفية في صاعقة جوبتر ولما رفعتها قليلاً فوق رأس التمثال وسقط نورها من الأعلى عليه بدا الجمال في التمثال يفوق ما يبدو وهو في وضح النهار. ثم دخل الملك يرافقه كل من (مدام ديتامپ) والدوفان نجله (وهو اليوم ملك فرنسا). والدوفينه، وملك الناڤار زوج شقيقته، ومدام (مرگريت) شقيقته، وعدد من السادة العظام الذين أوصتهم (مدام ديتامپ) وشددت عليهم الوصية بأن يحاولوا الإنتقاص من عملي.

ما ان لمحت الملك مقبلاً حتى أشرت الى مساعدي (اسكانيو) بدفع التمثال الجميل الى أمام نحو الملك فقام بتحريكه بكل رفق ولين. ولما كنتُ قد أحكمتُ عملي فيه ليخرج دقيق الصنعة كامل الشّيات من كل ناحية فقد بدا بهذه الحركة الخفيفة وكأنه ينبض بالحياة. وصارت كل التماثيل الأخرى وراءه بسبب الحركة ليكون أول ما تقع عليه أنظار الملك.

وإبتدرني جلالته فوراً:

- إنه لأبدع بكثير مما بدا قبلاً. وإستناداً الى خبرتي فأنا ما كنتُ أتخيّل شيئاً كهذا أو ما هو قريب منه.

أما أولئك الذين كان يُنتظر منهم إنتقاص عملي. فقد بدا وكأنهم يحارون في العثور على التعابير المناسبة للإشادة به وترجمة إعجابهم. هؤلاء السادة راحوا يكيلون لي المديح جزافاً.

هتفت (مدام ديتامپ) بعصبية:

- هل فقدت عينيك؟ أما ترى هذه التماثيل البرونزية النصفية في الخلفية كم هي رائعة؟ إن عبقرية النحت الأصيلة تتجلى فيها وليس في هذه الفجاجة المستحدثة.

تقدم الملك متبوعاً بالآخرين وأرسل بصره متفرساً في القطع الأثرية المنقولة ولم تكن ظاهرة بهيئة

جذابة لأن النور كان يأتيها من الأسفل وليس من الأعلى.

قال:

- كل مَن قصد بهذا الرجل سوءً فقد مَنَّ عليه بفضلٍ كبير. فمقارنة عمله بهذه التحف الأثرية الرائعة لاتؤدي كما يبدو واضحاً للرائي إلاّ الى الحكم بأن ثمرة عمله أجمل وأبدع منها بمراحل. لذلك وجب علينا أن نخصّ (بنڤنوتو) بأعلى التقدير. فعمله لايضاهي تلك فحسب بل يفوقها.

قالت (مدام ديتامپ) لن يبدو التمثال بمثل هذا الجمال لو شوهد نهاراً كما يبدو ليلاً بنسبة الواحد بالألف. وإستطردت تقول... "وفضلاً عن هذا فإنه وضع فوق التمثال حجاباً إخفاءً لعيوب فيه".

في الواقع كان هذا "الحجاب" مجرد غلالة من الخزّ شفافة للغاية وضعتها عليه بأناقة ولطف لمضاعفة مهابته. ما وعيتُ ملاحظتها حتى أمسكتُ بالغلالة وسحبتها من الأسفل كاشفاً عن الأعضاء التناسلية المتقنة الصنع ثم رفعتُ الكساء كلّه بإنزعاجٍ واضح.

ظنّت (مدام ديتامپ) أنّي ما كشفتُ عن هذه الأجزاء إلاّ تعريضاً بها[٥٦]. وما ان أدرك الملك مبلغ شعوري بالإهانة وكيف أنّي وقد أعماني الغيظ أحاول إنتزاع بعض الكلمات التي عصيت في حلقي هتف هذا الإنسان العظيم الحكمة بلهجة آمرة جازمة:

- بنڤنوتو! حذارِ من أن تنطق بحرف. أسكت وإهدأ وستُكافَأ بألف ضعف مما ترجو من الغالي والنفيس.

كنت أرتجف حنقاً. وخانني لساني. وإرتجّ عليّ. وكلّ هذا جعلها تجمجم وقد تضاعف غضبها. وإنصرف الملك بسرعة قبل الأوان وهو يزجي إليّ عبارات التشجيع والمؤاساة بصوتٍ مرتفعٍ كقوله: إنّه أستقدم من إيطاليا أعظم فنان ولدتهُ أمّ.

تركتُ (جوپتر) حيث هو، وفي صباح اليوم التالي وأنا أستعد لمغادرة (فونتنبلو) دفع لي ألف كراون ذهباً تسديداً لما أنفقته من جيبي الخاص زائداً أجري المتفق عليه. وعدتُ الى پاريس راضياً منشرح النفس ولم يستقر بيَ المقام حتى أقمتُ حفلة في داري وبعد العشاء أمَرتُ بإحضار كلّ ثيابي وفيها قطع كثيرة من الحرير والفراء الثمين، ومن أنفس القماش وأدقه حياكة وقمتُ بتوزيعها هدايا لسائر العاملين في مصنعي كلٌّ حسب إستحقاقه ولم أستثنِ البنات الخادمات وصبيان الإسطبل تشجيعاً وتحريضاً لهم على التفاني في خدمتي والإخلاص لي. وإندفعتُ بعظيم حماسة في إكمال تمثال (مارس) العملاق بدقةٍ وتفرّغ. وكنتُ قد فصّلته هلى هيكلٍ خشبيّ يناسبه تماماً. ثم كسوتُ الهيكل بطبقة من الجص سمكها ثُمنُ (كوبيت) تقومُ مقام اللحم الذي يغطي الهيكل العظميّ. ثم شرعتُ في صبّه جزءً جزءً ليتمّ لحام القطع فيما بعدُ بطريقة التعشيق وكان عملاً سهلاً.

جديرٌ بي هنا أن لا أغفل ذكر حادثة مضحكة تتعلق بهذا التمثال العملاق.

كنتُ قد منعتُ كلّ المشتغلين عندي من جلب عاهراتٍ الى المنزل أو الى القلعة مطبّقاً أمري بكل صرامة. إلاّ أنّ (اسكانيو) مساعدي الشاب كان قد علق بهوى فتاةٍ في غاية الحُسن وبادلته هي

(٥٦) التعريض هناك بعلاقة المحظية الجنسية واضح مقصود. وقد أصابت مدام دي تامپ في تقديرها فعلاً.